ضَياع في القفار الملتهبة

الطيور تتقافز فوق الحجارة السوداء وتبحث لها عن مأوى، والسماء رمادية اللون والمطر رذاذي متقطع والبرد شديد. إنه تشرين الثاني، شهر الصقيع إذ الخريف الدافئ قد رحل والأشجار تعرّت وغَدَتْ قاتمة وكئيبة. تثاءبتُ كالقطّ وأنا مستلق على ظهري بجانب صخرة كبيرة احتميت بها من لسعة برد تهب من الشرق، ومن ثم حدّقت في الغيوم الحبلى بالمطر والعابرة فوقي بعجل. وصية الحاج أحمد ما زلت أرددها في أعماقي:

- عندما تصل إلى الحدود لا تفعل أي شيء، فقط اسأل عن الضابط هناك وانتظره في المكان الذي حددته لك حتى يأتي هو إليك.

صحيح إن هذا الضابط سافل كما يقول عنه الجميع، لكنه يملك حفرة أسفل الأسلاك الشائكة في مكان آمن على الحدود هنا قد حفرها بيديه مثل الكلب ليجعل منها مهرباً للنازحين مقابل عشرين ألف ليرة.

- ليرة..؟، عشرون ألف يا حاج أحمد..؟، والله كثير..!!.

فرّد الحاج ساخراً :

- لا، عشرون ألف بيضة، طبعا ليرة، ابق هنا مختبئاً كالأرنب إن أردت.

لم أبق هناك، وبعتُ ما بقي عندي من مخزون الزيت بِعُشْرِ ثمنه، وأعطيت نصف المبلغ للحاج والنصف الآخر سأدفعه للضابط هنا ليسمح لي بالعبور نحو النجاة.

تململت مكاني وقد شعرت بالنعاس، غفوت للحظة خلتها دهراً، واستيقظت فَزِعاً على حلم استحضر من عمق ذاكرتي صوت القنابل وهديرِ الطائرات المحلقة، نهضت وتسكّعت بين أكوام النساء والأطفال والشيوخ المنتظرة عبورها من البوابة الرسمية للحدود إلى حيث النجاة من الدمار والموت هنا. عنين المرضى أرهق روحي، فابتعدت نحو جمهرة من الرجال يتحادثون بهموم النزوح والكارثة في الوطن، لاح طيف مدينتي عند الأفق، وبدت أعمدة الدخان فيها سوداء ملتوية وكأنها ثعابين خرجت من باطن الأرض ولامست عنان السماء، هناك تركت بيتنا نصف مهدم كما تركت حقل الزيتون ووجيهة ابنة عمي.

- هذه الليلة سأغادر يا وجيهة، سأشتاق لك كثيراً.

- بل ستهرب، وأنا لن أشتاق لأحد.

وبكتْ، حادة كانت نبرة صوتها، وغضبها بعثر الصفاء في صفحة وجهها فبدت لي مضطربة المزاج ومتشنجة التقاسيم وزائغة النظر. قلبها قسى وبات كالحجر ولم تعد وجيهة الوديعة والرقيقة التي أعرفها وقد ذبل الحب بيننا وكنا رويناه بصمت لذيذ منذ سنوات قليلة مضت. ربما كانت على حق وإني سأهرب إلى المجهول، فهنا أصبح كل شيء ملوثاً، حتى هذا الهواء وقد خسرت الكثير في حياتي وأصبحت مطارداً في الليل والنهار. أبي لم يحتمل الكارثة، فبكى وعلا الوجوم وجهه وأصابه الذهول، صمت لأيام عديدة لم يكلم فيها أحداً حتى وجدناه في أحد الصباحات الباردة ممداً فوق التراب

في الحقل القريب من البيت وقد فارق الحياة. وأمي غادرت البيت هرباً مع أخي الكبير وزوجته وأطفاله، ولم تعرف بعد بأن قذيفة طائشة قد أصابت شجرة الزيتون المعمرة في ساحة بيتنا الخلفية، كانت تقول دائما عن هذه الشجرة :

- هي أول أولادي، زرعتها يوم زفافي واعتنيت بها كأنها واحدة منكم، فاعتنوا بها كُرمى لي.

ماذا ستفعل إن علمت بأن شجرتها العزيزة قد هوت على الأرض وبانت جذورها وجفّ ماءها وأصبحت حطباً..؟، أم إن حزن الشتات طغى على قلبها المكلوم ولم تعد قادرة على بكاء شجرة وقد بكت الوطن النازف..؟.

تتوارد خواطري وأنا أستمع إلى شذرات من حديث الرجال وأحدّق بكل واحد منهم لبرهة من الزمن، يمجّون سجائرهم بشراهة، ويسعلون بقوة حتى تكاد أحشاءهم أن تنزلق من جوفهم وتتكوم أمامهم، والكآبة تعلو وجه الجميع، والإرهاق رسم هالة سوداء حول العيون الغائرة والحائرة، وخبأت تجاعيد السنين في وجه كل واحد منهم مأساة مختلفة وقصة جديدة. غادرتهم وعدت أمشي بلا هوادة، اشتد البرد وذابت الشمس خلف الغيوم الداكنة وخفّ نورها وبدت السهول الوعرة الحمراء حولنا وكأنها ظلال شاحبة لا لون فيها.

بكاء الأطفال أرهق أعصابي وخِلته خنجراً يحفر في قلبي وعقلي ووجداني، فوثب جنوني وصرخت بهم ليصمتوا فلم يزدهم هذا إلا بكاء من جوع أو برد أو خوف أو ربما من كل ذلك. إحدى النساء شتمتني باكية ورفعت يديها نحو السماء تشكوني وتنتحب، قرصني الجنون مجدداً، فتأهبتُ للانقضاض عليها لولا أَنْ ردعتني غريزة ما ولجمني الخوف فاكتفيت بالابتعاد عنها أجر أذيال خيبتي ورائي.

البرد لا يرحم أحداً، وبكاء الأطفال مازال يمزق صَمْتَ البراري حولنا، وأنا منذ الخمس ساعات أنتظر الضابط في هذه النقطة المتطرفة قليلاً وعليّ أن لا أغادرها وأن أنتظر فقط قدومه لي. الجموع البائسة تأتي وتغدو من أمامي وتختفي خلف بوابات العبور خارج الوطن، وأنا لا أقترب خشية أن يُفْتَضَحُ أمري.

حدّقت في الأفق البعيد وتساءلت أين أنا..؟، هل أعود إلى بيتي وحقل الزيتون ووجيهة أم أكمل رحيلي..؟، رحيل هذا أم هروب ..؟، البيت أصلحه، والزيتون أعتني به بعد طول إهمال، ووجيهة أعيد ابتسامتها بهمسةٍ مني، ولكن هل هذا أغلى من الروح إذ الموت يتربّص بها في كل الزوايا هناك..؟، كيف سأتوارى عن الأنظار وأنا في قائمة الملاحقين والمطلوبين حياً أو ميتاً..؟، وكيف سأهرب وقد بات اسمي في كل منافذ الوطن كممنوع من المغادرة..؟، ابن المختار صديقي القديم قال لي يوما:

- أَنْ تبقى هنا يعني أن تعيش في الجحور وفي الظلام لأنك مطلوب، عليك بالرحيل.

- إلى أين، وكيف..؟.

صمت وهو يعبث بأنفه الصغير ثم قال بعد برهة:

- إلى خارج البلد، تهريب عبر الحدود، عليك بالحاج أحمد، هو يعرف كيف.

واجتاحني سيل من التساؤلات أرهقت روحي المُتلفة، والبرد القارس شوّش عقلي، والضابط تأخّر ومضت ساعة أخرى حتى أتى. قصير القامة كان وكبير البطن والأرداف وأنفه ضخم في رأس صغيرة يعلوها شعر أحمر اللون وأشعث

الشكل، وخلف نظارته السوداء الكبيرة يُخفي عينـين كـم تاقـت نفسي لأن أحدّق بهما وأعرف أي نوع من الرجال هو.

حادثني باسمي فخفق قلبي بشدة واقتربت منـه بحـذر. إنـه هو إذا، شعرت بشعور مختلط من الرعب والاطمئنان. بادرنـي بالقول:

- هل معك باقي المبلغ..؟.

- نعم.

بسط أمامي كفّه المعروقة فوضعت له فيها رزمـة نقـودي. عشرة آلاف ليرة، انتظرت حتى أكمل عدّها، ومن ثم أشار لـي بيده بأن أتبعه، فمشـى متبختـراً أمـامي كـذكر الـبطّ وأنـا خلفـه أتعثّـر بخطـواتي وقلبـي يكـاد أن ينفطـر خوفـاً. مـاذا لـو كـان كميناً..؟، لا فالحاج أحمد دقّ على صدره وأقسم بأنه سيهربنـي خارج الحدود. مضت بنا الدقائق ثقيلة والسيارة تنهب الطريـق الترابي الوعر وسط التلال وأجَمـات النباتـات البريّـة الكبيـرة وبُرَك الماء التي أحدثها رذاذ المطـر حتـى اقتربنـا مـن السـلك الشائك، أمرني فلبيت ونزلت من السيارة، وجدت نفسي وسـط زمرة من الجنود والسلاح والكل صـامت ويطفـو علـى وجهـه العبوس، والرعب جعـل قلبـي يقـرع فـي جـوفي بعنـف كطبـل كبير. أحدهم أخذ مني حقيبتي الهزيلة ورماها من فـوق السـور ومدّ يـده فـوق الأرض ورفـع غطـاء كبيـراً، فبانـت لـي أسـفله حفرة ضخمة وقال بلهجة آمرة:

- انبطح أرضاً واعبرها زحفا على بطنك، هيا.

رميت نفسي بلا تفكير، فَهَوَتْ جثتي من علوها وارتطمـتْ بـالأرض كجـذع شـجرة يابسـة، لامـس أنفـي الطـين فشـممت رائحة تراب مبلول أعادتني إلى حقل الزيتـون وبيتنـا ووجيهـة

وأبـي وأمـي فانتحبـتْ أعمـاقي كَمْـداً وقهـراً وقـد اشـتدّ البـرد وترامى إلـى مسـامعي أزيـز رصاصـات متقطعـة بعيـدة جـداً، طأطـأت رأسـي أسـفل السـلك ودخلـت فـي حفـرة فـي الأرض يعلوها السياج الشائك، ودلفت إليها مثل ثعبان، زحفت لمتـرين أو ربما ثلاثـة حتـى بـان رأسـي مـن الجهـة المقابلـة، تلبسـتني وحشة مخيفة وكـدت أن أعـود أدراجـي، لكنـي وقفـت منتصـباً والطين يغطيني، تسمّرت مكـاني وسـمعت الضـابط يقـول مـن الجهة الثانية:

- تابع سيرك حالاً، سـاعة أو أقـل سـتجد نفسـك فـي البلـدة القريبة، وهناك تدبّر أمرك.

كـان الأفـق قـد ابتلـع الشـمس، واصـطبغت غيـوم السـماء الرمادية بلون برتقالي شاحب. تنفست بعمـق لأسـتعيد سـكينتي وشعوري بذاتي ومكـاني وزمـاني، فتحسّـس أنفـي هـواءً غيـر الهواء الذي اعتدت، نظرت بعيـداً فكانـت مـدينتي بعيـدة جـداً، عني وبعض الأسلاك تفصلني عـن وطنـي وبعـض الخطـوات أيضا وأنا أضعف مـن أن أعبرهـا ثانيـة أو حتـى أقتـرب منهـا وألمسها. بات وطني اليوم هو الشتات وتراءى لي وجه وجيهة محزونـاً، ورأيـتُ عينيهـا دامعتـين، وشـعرتُ بروحهـا تحـوم حولي وتمسّ شغاف قلبي وكلماتها الأخيرة لي كانت وخزة في صميمي المرهق. أدركت بأني قد أصـبحت شـريداً بـلا وطـن، وروحي قد غزاها الخريف وتبعثرت كورق الشجر الأصـفر، وإن آخر أوراقي قد سقطت وبدوت عارياً تمامـا كأشـجار هـذه البـراري المبلولـة والغارقـة فـي الصـمت. الـدمع طـرق مـآقيّ فقاومتــه، أدرت ظهـري وحاولـت أن أتــابع سـيري لكنــي لـم أستطع وكأن شللاً أصابني وبدوت وسط هذه القفـار كتمثـال لا حيـاة فيـه ولا روح. أغمضــت عينــي بكفــي لأحـبس الـدمع

المتمرد ففشلت، تخايلتُ البيت والزيتون ووجيهة وأبي وأمـي، فانهرت باكياً أنحب كطفل صغير.

وفي غمـرة أوجـاعي سـمعت صـوت وجيهـة يقـول بحـزم وبرود :

- يا حيف على الرجال أن تبكي، يا حيف.